

المقاربة السوسيولوجية: خصوصياتها والمفارقات الجوهرية القائمة بينها

The sociological approach: Characteristics and its fundamentals paradoxes

سمير يوسف خوجة¹، حميد شاوش²¹ جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)، khodjasam@yahoo.fr² جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)، hamid_chaouche@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/14 تاريخ القبول: 2025/11/14 تاريخ النشر: 2025/12/31

Abstract

ملخص

This article aims to investigate the peculiarities of the sociological approach and the fundamental paradoxes that exist between the issue of objectivity and subjectivity, the interpretation and understanding, and between quantitative and qualitative approach. After analyzing the specialized literature, it became clear that there is a transcendence of the paradox between the different approaches adopted by researchers in this field, by reconciling objectivity and subjectivity, interpretation and understanding of social phenomena and actions, and between the quantitative approach and the qualitative approach in the field of sociological studies.

Keywords: sociological approach; social phenomena; social actions; quantitative approach; qualitative approach.

يهدف هذا المقال إلى البحث في خصوصيات المقاربة السوسيولوجية والمفارقات الجوهرية القائمة بين مسألة الموضوعية والذاتية، وبين تفسير وفهم الظواهر والأفعال الاجتماعية، وبين المنهج الكمي والمنهج الكيفي، وبعد تحليل الأدبيات المتخصصة تبين أن هناك تجاوز للمفارقة بين المقاربات المختلفة التي يتبناها الباحثون في هذا الميدان، وذلك بالتوفيق بين الموضوعية والذاتية، وبين تفسير وفهم الظواهر والأفعال الاجتماعية، وبين المنهج الجانبي الكمي والمنهج الكيفي في مجال الدراسات السوسيولوجية.

كلمات مفتاحية: المقاربة السوسيولوجية؛ الظواهر الاجتماعية؛ الأفعال الاجتماعية؛ المنهج الكمي؛ المنهج الكيفي.

1. مقدمة:

هذا المقال هو محاولة البحث في خصوصيات المقاربة السوسيولوجية وفي أهم الاشكاليات التي مازالت عالقة في ميدان البحث السوسيولوجي. فمشروع الدراسة العلمية للمجتمع التي صاحبت علماء الاجتماع الاوائل افضت في مجال علم الاجتماع الى تبني اتجاهين مختلفين على المستوى النظري والمنهجي. وكنتيجة لذلك فان المعرفة السوسيولوجية أصبحت تحمل في طياتها هذا التباين في وجهات النظر المختلفة التي طبعت علم الاجتماع منذ ظهوره في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك راجع لأسباب تاريخية وفكرية وفلسفية.

ولقد كان جوهر الاختلافات يتمحور حول تحديد الموضوع الذي سوف يختص به علم الاجتماع الظواهر الاجتماعية أو الأفعال الاجتماعية؟ هل يجب الانطلاق من المجتمع أو من الفرد؟ وارتكزت هذه الاختلافات كذلك حول معرفة ما هو السبيل الأمثل للوصول الى المعرفة العلمية حول المجتمع، هل يجب التركيز فقط على الموضوعية لتحقيق هذه المعرفة أم أن للذاتية دور لا يستهان به في ميدان البحث السوسيولوجي؟ ماهي الطريقة المناسبة لدراسة مواضيع علم الاجتماع؟ وهل يجب الاعتماد على التفسير أم على الفهم؟ وماهي المناهج الجديرة بالمعرفة السوسيولوجية، الكمية منها أو الكيفية؟

وفي هذا المقال سوف نستعرض كل هذه المحاور التي تشكل تصدعا في قالب هذا التخصص، والتي تضع علماء الاجتماع في مفترق التوجهات التي تفرض عليهم ضرورة سلك اتجاهها معينا في دراساتهم السوسيولوجية، فهذا ما يفسر مثلا التباين القائم بين علماء الاجتماع فيما يخص محتوى الدراسات التي يقومون بها على الرغم من أنهم تطرقوا لنفس المواضيع، كنقطة أولى في هذا المقال نركز فيها على بعض خصوصيات المقاربة السوسيولوجية التي ينفرد بها علم الاجتماع بالمقارنة مع العلوم الأخرى، ثم نعكف على أهم نقاط التباين التي يعرفها البحث السوسيولوجي.

2. تحديد مفهوم المقاربة السوسيولوجية: (la démarche sociologique)

قبل الخوض في خصوصيات المقاربة السوسيولوجية التي نحن في صدد عرضها في هذا المقال، بوننا أولا تحديد مفهوم المقاربة السوسيولوجية التي تحمل في باطنها الإشكال الذي نعالجه في هذا المقال، فالمقاربة السوسيولوجية نقصد بها تلك التطرق التي يعتمد عليها عالم الاجتماع في دراسته للظاهرة الاجتماعية قصد انتاج معرفة حول شؤون المجتمع لكي تستجيب للشروط العلمية والموضوعية.

فمنذ البوادر الأولى التي سبقت تأسيس علم الاجتماع كفرع قائم في حد ذاته، ركزت التخمينات الفلسفية الأولى مع أوجست كومت، إيمانويل كانط وغيرهم حول السبيل الأمثل لدراسة الظواهر المتعلقة بالمجتمع. هل هذا الامر يستدعي نفس المنهجية المعتمدة في دراسة الظواهر الطبيعية ام منهجية خاصة

بالظواهر الاجتماعية نظرا لطبيعتها المختلفة؟ او بمعنى اخر، هل دراسة الظواهر الاجتماعية مبنية على التفسير ام على الفهم؟

وفيما يخص علماء الاجتماع، فمن بين المفكرين الذين وضعوا الأسس الاستيمولوجية الأولى لهذا العلم نجد على وجه الخصوص كل من اميل دوركايم وماكس فيبر، هذه الأسس الاستيمولوجية افضت الى بلورة منذ تلك المرحلة الأولى التي ظهر فيها علم الاجتماع، ازدواجية في المقاربة السوسيولوجية للظواهر التي يختص بدراستها علم الاجتماع الذي انفرد بالتالي عن باقي كل العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى التي وقع فيها اجماع فيما يتعلق الامر بالموضوع وبالمنهج الخاص بكل علم.

3. خصوصيات المقاربة السوسيولوجية:

لقد حمل علم الاجتماع منذ مرحلة بلورته البذور الأولى لذلك الصدع الذي بقي يميزه حتى اليوم، فعلم الاجتماع لم يتمكن من صياغة تصورا موحدا فيما يتعلق الأمر بالموضوع الخاص به وكذلك بمنهج البحث التي يستطيع بواسطتها بناء معرفة سوسيولوجية، لأن بروز علم الاجتماع كفرع علمي جديد في الساحة الفكرية تأثر بالأصول التاريخية والفكرية وبالتقاليد الفلسفية للدول التي انبثق منها علم الاجتماع وخاصة منها فرنسا وألمانيا وهذا الارث الفلسفي والفكري جعل من علم الاجتماع تخصصا ينفرد ببعض الخصوصيات التي تميزه عن باقي العلوم الاجتماعية الأخرى.

من بين الأسباب التي جعلت علم الاجتماع فرعاً علمياً معقداً، هناك كذلك طبيعة المواضيع التي يتكفل بها، فهذه المواضيع الخاصة بعلم الاجتماع تقرض جملة من العوائق على العالم الاجتماعي لصياغة مواضيعه في قالب سوسيولوجي، فالعالم الاجتماعي يواجه على سبيل المثال نفوذ الأفكار المسبقة والأحكام القيمة (les jugement de valeurs)، وعلم الاجتماع التلقائي (sociologiespontané)، الخ، مما تجعله في يقظة إستيمولوجية مستمرة قصد التحكم في موضوعه، لا يعرفها باقي العلماء في مجال العلوم الأخرى.

من جهة أخرى، فان هذا التطور وهذه الأبعاد المختلفة التي طبعت علم الاجتماع أدى الى التنوع في ممارسة هذا العلم من طرف علماء الاجتماع سواء من حيث المجالات الخاصة به، توجهاته، مناهجه وأساليبه (Berthelot, 1991, p. 114)، وهذا التباين جعل من علم الاجتماع علماً ليس مكتملاً بعد وموضوعه لم يتحدد بصفة نهائية وإنما في تجديد مستمر، بالتالي فان المقاربات والتحليلات السوسيولوجية التي يتبناها علم الاجتماع تتجاوزها بصفة مستمرة كل هذه الاعتبارات سعياً الى اعطاء بعداً علمياً لهذا العلم وللمعاريف التي يقوم بإنتاجها.

ونتيجة لذلك، فلقد برزت مدرستين أساسيتين في ميدان علم الاجتماع؛ الأولى هي المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع والتي يمثلها "اميل دوركايم"، بينما الثانية فهي المدرسة الألمانية لعلم الاجتماع والتي يمثلها

"ماكس فيبر". فكل مدرسة حددت توجهها خاصا ومقاربة معينة (spécifique) لعلم الاجتماع مجسدا بذلك هذا التصور المزدوج لعلم الاجتماع، هذا التباين نلتمسه من حيث الموضوع ومن حيث الطريقة والمنهجية التي يجب اعتمادها قصد الوصول الى المعرفة السوسيولوجية، ومن حيث محتوى هذه المعرفة.

4. نقاط التباين في مجال البحث السوسيولوجي

نركز في هذا العنصر على هم المسائل التي تشكل جوهر التباين في المقاربات السوسيولوجية في ميدان علم الاجتماع، النقطة الأولى تتمثل في مسألة موضوع علم الاجتماع، ثم مسألة الموضوعية والذاتية، وبعد ذلك نعرض كل من مسألة التفسير والفهم في ميدان البحث السوسيولوجي، ومسألة التباين في محتوى الدراسات السوسيولوجية، وأخيرا نختتم بمسألة المنهجية التي تطرح هي الأخرى الاشكالية التي مازالت لم تفصل بعد، ألا وهي مدى أهمية كل من المناهج الكمية والمناهج الكيفية.

4.1. الظواهر الاجتماعية أو الأفعال الاجتماعية:

موضوع علم الاجتماع بالنسبة لـ "اميل دوركايم" هو دراسة الظواهر الاجتماعية (les phénomènes sociaux)، هذه الظواهر، يقول "دوركايم" تختلف كل الاختلاف عن الظواهر النفسية وإنما هي حالة من حالات الجماعة لها قوانينها الخاصة، وهي من جنس قائم بنفسه ولقد عرف "دوركايم" الظواهر الاجتماعية على أنها "كل ضرب من السلوك ثابتا كان أم غير ثابت يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية" (دوركايم، 1990، صفحة 57).

وهذه الظواهر الاجتماعية، يرى "دوركايم"، قد ورثناها في معظمها عن الأجيال السابقة بحيث يجدها الفرد تامة التكوين منذ ولادته وما علينا إلا الرضوخ لأوامرها لأنه من العسير تغييرها أو عصيانها، وتلعب التربية والتنشئة الاجتماعية في هذا الإطار الدور البارز في نقل هذه الظواهر كالعقائد والعادات من جيل لآخر، يتضح كذلك دور التربية بصفة جلية في عملية بسط نفوذ هذه الظواهر وتعميمها على الأفراد وعلى المجتمع بأسره دون ردود فعل تذكر.

ولقد حدد "اميل دوركايم" مجموعة من الخصائص التي تنفرد بها الظواهر الاجتماعية، والتي بفضلها يمكن تمييزها عن باقي الظواهر التي نجدها في المجتمع، هذه الخصائص هي علامات خارجية وقد شدد "دوركايم" على هذه الخاصية كي يستطيع أن يعالج الظواهر الاجتماعية بصفة موضوعية، كما سوف نراه لاحقا، فالظواهر الاجتماعية هي تلك الظواهر التي نجدها في المجتمع والتي تمارس نوعا من القهر الاجتماعي على الأفراد ويتجلى هذا القهر بقوة متى حاولت مقابله (دوركايم، 1990، صفحة 41).

إلى جانب هذه الخاصية التي تمتاز بها الظاهرة الاجتماعية، حدد كذلك "اميل دوركايم" خاصيتين إضافيتين تتفرد بهما هذه الظواهر، فالظاهرة الاجتماعية هي كذلك ظاهرة عامة في الطائفة الاجتماعية، يقول "دوركايم"، لأن وجودها لا يقتصر على مجموعة من الأفراد فقط وإنما ظاهرة قائمة هنا وهناك وفي مختلف أنحاء وأطراف المجتمع، ضف إلى ذلك فإن الظاهرة الاجتماعية هي تلك الظاهرة التي لها وجود مستقل عن الصور الفردية التي تتشكل بها (دوركايم، 1990، صفحة 52).

أما بالنسبة لـ "ماكس فيبر"، فموضوع علم الاجتماع يتمثل في دراسة الأفعال الاجتماعية (les actions ou les activités sociales)، ولقد قدم "ماكس فيبر" قالباً نظرياً مختلفاً عن التصور الذي تبناه "اميل دوركايم" بخصوص علم الاجتماع، فمجال اهتمام "ماكس فيبر" هو الفعل الاجتماعي وليس الظواهر الاجتماعية، بالتالي فإن علم الاجتماع بالنسبة لـ "فيبر" هو ذلك "العلم الذي يهدف إلى فهم وتفسير الفعل الاجتماعي بالبحث عن أسباب حدوثه وعن نتائجه" (Weber, 1995, p. 28).

ولكن حسب "فيبر"، لا تشكل كل الأفعال الاجتماعية مواضيعاً لعلم الاجتماع، وإنما الأفعال الاجتماعية التي ترتقي إلى موضوع علم الاجتماع، فهي تلك التي تحمل فقط معنىً والتي يمكن فهمها طالما أن الفاعل الذي يقوم بهذه الأفعال يوجهها لغيره وهي مرتبطة بتصرفات الغير (Weber, 1995, p. 28). ففي هذه الحالة فقط تصبح هذه الأفعال مجال اهتمام العالم الاجتماعي ومهمة علم الاجتماع هنا، هو تفسير هذه التفاعلات القائمة بين هؤلاء الأفراد انطلاقاً من المعنى الذي يوليه كل واحد منهم للأفعال هذه. فهنا نجد أن الأفعال الاجتماعية بالنسبة لـ "ماكس فيبر" ليست بأشياء وإنما هي ناتجة من التفاعلات القائمة بين الأفراد في المجتمع، والتي تستجيب إلى مختلف الدوافع والمصالح التي تراود هؤلاء الأفراد والتي يجب على عالم الاجتماع إعادة بنائها وصياغتها من أجل فهمها وتفسيرها، فهذه الأفعال الاجتماعية التي تشكل موضوع علم الاجتماع بالنسبة لـ "فيبر" يتبناها أفراد واعين وقادرين على الفعل والتصرف وفقاً لأهدافهم ولما ينتظره الغير منهم.

فعلى عكس "اميل دوركايم"، فإن "ماكس فيبر" يعتقد بأن الواقع الاجتماعي ليس محدداً بصفة مسبقة نتيجة حتميات هيكلية وبنوية تفرض نفسها على مصير الأفراد فيه، وعليه فإنه من الضروري فهم تصرفات الأفراد من وجهة نظر ذاتية، ومن القيم التي يتخذها من أجل تبرير سلوكياتهم ولا يجب التركيز فقط على أسباب وحتميات خارجية، وبالتالي فإن علم الاجتماع، حسب "ماكس فيبر"، هو علم أساسه الفهم والتفسير لأن القصد منه هو أولاً وقبل كل شيء هو تفسير هذه الأفعال التي يتبناها الأفراد في المجتمع.

2.4 الموضوعية أو الذاتية:

من بين الإشكاليات التي أثارت نقاشات حادة بين المتخصصين بخصوص علمية موضوع علم الاجتماع، هناك خاصة مسألة الموضوعية والذاتية وذلك منذ ظهوره، هل على علم الاجتماع التقيد بمبدأ

الموضوعية لفرض مصداقيته العلمية كباقي العلوم؟ أم أن الذاتية في علم الاجتماع هي جزءاً من هذه المعرفة السوسيولوجية والتي يجب أخذها في الحسبان نظراً لطبيعة المواضيع التي يهتم به هذا العلم؟ ففي هذا المجال، فلقد برز اتجاهين متباينين، الأول ينادي بضرورة التقيد بالموضوعية ويمثله اميل دوركايم والاتجاه الثاني يؤكد على أهمية الجانب الذاتي الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ في عملية فهم المسائل التي يطرحها علم الاجتماع والذي يمثله ماكس فيبر.

فبالنسبة لـ "اميل دوركايم" الذي يرجع له الفضل في تأسيس علم الاجتماع في فرنسا فلقد أكد على ضرورة إخضاع علم الاجتماع إلى نفس المبادئ المنهجية والابستمولوجية التي أقرها كل من "كلود برنار" و"قاستونباشلار" بخصوص المقاربة العلمية والعقلانية الخاصة بالعلوم الطبيعية (Bachelard, 1988). فيجب على الباحث التحكم بموضوعه، بناؤه بطريقة علمية وتأكيده بالملاحظة، فالممارسة العلمية هي عملية بناء وتركيب التي تلازمها طبيعة ابستمولوجية مستمرة قصد بلورة موضوع ما في قلبه العلمي، يقول "بيير بورديو" (Bourdieu, Chamboredon, & Passeron, 1980).

فعلم الاجتماع الذي يهتم بدراسة المجتمع والظواهر الاجتماعية، حسب وجهة نظر "اميل دوركايم"، فهو في أمس الحاجة إلى الموضوعية من أجل التخلص من الأفكار المسبقة وغير المحصنة والتي تشكل بالنسبة لعالم الاجتماع كمائن محدقة على طول مساره العلمي، بالتالي فان على علم الاجتماع التقيد بمنهجية علمية وموضوعية تتمثل في الملاحظة، الفرضيات والتجربة أو المقارنة قصد إنتاج معرفة سوسيولوجية تستجيب لمعايير علمية وموضوعية واستخدام الإحصاء.

نتيجة لذلك نجد أن "اميل دوركايم" قد تقطن إلى هذه المشاكل منذ سنة 1895، حين ألف كتابه "في قواعد المنهج في علم الاجتماع" (دوركايم، 1990) قصد الفصل في هذه المسألة حينما وضع الأسس المنهجية الموضوعية والعلمية في ميدان دراسة الظواهر الاجتماعية، فكما أشرنا إليه سابقاً أكد "دوركايم" بأن الظاهرة الاجتماعية موجودة خارج المشاعر والإرادات الفردية، وهذه الخاصية الجوهرية التي تتميز بها هذه الظواهر هي التي تساعدنا على دراستها بصفة علمية وموضوعية لأنها تتوفر على نفس الميزة التي نجدها في باقي الظواهر الطبيعية وهي إمكانية إخضاعها للملاحظة كأنها أشياء.

إلى جانب هاتين القاعدتين المتمثلتين في التحرر من الأفكار السابقة وضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية من الخارج كأنها أشياء، استكمل "اميل دوركايم" أدواته المنهجية بقاعدة ثالثة ومدعمة لما ذهب إليه في القاعدتين السابقتين، والمتمثلة بأهمية تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، فلما كان وجود هذه الظواهر الاجتماعية خارج شعور الأفراد، فبالتالي لا يمكن إيجاد سبلا لتفسيرها في أعماق النفوس والإرادات الفردية وإنما سبب وجودها يجب البحث عنها في أعماق المجتمع، ويقول "دوركايم" في هذا الصدد، "إذا أردنا فهم

الفكرة التي يكونها المجتمع عن نفسه وعن العالم الذي يحيط به فلا بد لنا من دراسة طبيعة هذا المجتمع لا طبيعة أفراده" (دوركايم، 1990، صفحة 20).

أما فيما يخص الذاتية، فإن "ماكس فيبر" يرى بأن الذاتية لا تشكل عائقا في وجه علمية علم الاجتماع فحسب وإنما تمثل سبيلا للوصول إلى المعرفة السوسيولوجية، فعلى عكس المقاربة التي تنبأها "إميل دوركايم" بخصوص دراسة الظواهر الاجتماعية والمتمثلة في تفسير هذه الظاهرة من الخارج، فإن "ماكس فيبر" سلك مسلكا مختلفا بصفة جذرية عنها، لأن مقاربة "فيبر" للأفعال الاجتماعية (les actions ou les activités sociales) والتي هي موضوع علم الاجتماع بالنسبة له كما رأيناه سابقا، فهي في حاجة إلى التسلل من الداخل لفهم الغايات والمعاني التي يقصدها الفاعلين الاجتماعيين حين القيام بتصرفاتهم، فـ "ماكس فيبر" له نظرة ذاتية للواقع الاجتماعي رغم أنه ينفي دائما وجود رغبة لإدراج هذا الواقع (الاجتماعي) في مجال علم النفس.

فـ "ماكس فيبر" الذي جعل من الفعل الاجتماعي، من الفاعل ومن تفاعلاته النواة الأولى التي تقدم المادة الخام الأولى للمعرفة السوسيولوجية، كان من البديهي أن تشكل الذاتية بعدا مهما في المقاربة التي تنبأها هذا العالم الاجتماعي الألماني في دراساته حول علم الاجتماع، فالعالم الاجتماعي في حاجة إلى فهم الدوافع الشخصية والمعنى الذي يوليه الأفراد حين الإقدام على هذه الأفعال التي يقومون بها أثناء تفاعلاتهم اليومية مع الآخرين، فهذه الأهداف والغايات التي تحملها تصرفاتهم وردود الفعل التي ينتظرونها هؤلاء الأفراد من الآخرين هي التي تشكل جوهر الفعل الاجتماعي الذي يهتم علم الاجتماع عند "ماكس فيبر".

وفي حقيقة الأمر، هذا التصور الذي تنبأه "فيبر" حول علم الاجتماع لم ينفرد لوحده في ألمانيا التي شهدت في منعطف القرن الماضي، نقاشات جدية حول الأسس الاستمولوجية التي تنبني عليها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فعلى عكس العلوم الطبيعية التي تحدث دون تدخل الإنسان، فالعلوم الإنسانية مرتبطة بكانتات لها شعور، تتصرف وفقا لقيم، ومعتقدات، وتمثلات واعتبارات عقلانية، الخ، وبالتالي، يستدعي الأمر تبني منهجية خاصة بها لكي تتكفل بإعادة صياغة المعنى الذي يوليه الأفراد لأفعالهم (Lallement, 1993, p. 205)، فقد تأثر "ماكس فيبر" بهذه الأفكار والنقاشات التي أثارها الفلاسفة الألمان على غرار "إيمانويل كانط" التي أعادت الاعتبار للذاتية، كما تأثر "دوركايم" من جهته بالفلسفة الوضعية لـ "أجوست كونت" التي أقرت الموضوعية كالسبيل الوحيد لتحقيق علمية علم الاجتماع.

3.4. التفسير أو الفهم:

هذا التباين الذي يميز علم الاجتماع من حيث الموضوع أفضى كذلك إلى وجود ازدواجية على مستوى المقاربة السوسيولوجية الخاصة به، فـ "إميل دوركايم" يولي اهتمام أكثر إلى التفسير السوسيولوجي (l'explication sociologique) لفهم الظواهر الاجتماعية، بينما "ماكس فيبر" يفضل الفهم السوسيولوجي

(la comprehension sociologique) لتفسير الأفعال الاجتماعية، وهذا الاختلاف الجوهرى لا ينحصر فقط على "دوركايم" و"فيبر" وإنما نجده قائما أيضا في إطار المدرستين الفرنسية والألمانية لعلم الاجتماع، وفي ميدان علم الاجتماع بصفة عامة.

اعتمد "إميل دوركايم" على التفسير كسبيل لبناء معرفة سوسيولوجية لأنه، كما رأيناه سابقا، احتذى بالعلوم الطبيعية كالنموذج العلمي الذي يجب أن يتبعه علم الاجتماع إذا ما أراد أن يبلغ مستوى المعرفة العلمية، وفي العلوم الطبيعية فإن المنهج التفسيري هو المنهج الذي يتم استعماله في عملية الكشف عن الروابط بين الأسباب والنتائج التي تقف وراء الظواهر الطبيعية وفي الوصول إلى صياغة القوانين المفسرة لهذه الظواهر، ورأينا كذلك الصرامة العلمية والمنهجية التي قدمها "دوركايم" في هذا الإطار لكي يبلغ علم الاجتماع نفس الدرجة العلمية التي حققتها هذه العلوم الطبيعية.

والقواعد المنهجية التي أرساها لدراسة الظواهر الاجتماعية، كان الهدف منها هو الوصول إلى تفسير هذه الظواهر بصفة موضوعية وعلمية، وعملية تفسير هذه تهتم فقط بالمظهر الخارجي لها، ولا تولي أي اهتمام للجانب الذاتي الذي يتطلب دون شك سبيلا آخر لرصده كما فعل "ماكس فيبر"، والهدف من علم الاجتماع بالنسبة لـ "إميل دوركايم" هو تفسير الظواهر الاجتماعية بصفة علمية، هذه الأخيرة تمر بثلاثة مراحل أساسية؛ التعريف بالظاهرة، ودحض التفسيرات السابقة، والتفسير السوسيولوجي للظاهرة، ولقد أكد على أهمية وفعالية هذه الطريقة بدراسته لظاهرة الانتحار سنة 1897 (Durkheim, 1981).

بينما "ماكس فيبر"، فقد اقتدى بالفهم السوسيولوجي كسند منهجي قصد بلوغ الحقيقة العلمية في علم الاجتماع، لأن هذا العلم بالنسبة له ذو خصوصيات مختلفة عن تلك التي تمتاز بها العلوم الطبيعية، وبالتالي فإنها تستدعي طريقة خاصة كذلك لفهم الأفعال الاجتماعية، فالفهم السوسيولوجي يمثل السبيل الأمثل الذي يتوافق وطبيعة موضوع علم الاجتماع، فالفهم هو الطريقة المنطقية التي تهتم برصد المعنى الذي يحمله الفعل الاجتماعي أو تصرف أو سلوك معين (Grawitz, 1996, p. 100)، بالتالي الاجتماع بالنسبة لـ "ماكس فيبر" يهتم بالمعنى الذي يحمله الفعل وبالتالي يجب فهمه أولا قصد تفسيره.

وللوصول إلى المعرفة في علم الاجتماع، بناء على طريق الفهم السوسيولوجي يتطلب ثلاثة مراحل أساسية؛ أولا الفهم أي إدراك المعنى الذي يحمله الفعل، ثم تأتي مرحلة التأويل التي تهدف إلى تنظيم المعنى الذاتي للفعل بواسطة مفاهيم ثم المرحلة الأخيرة والمتمثلة في تفسير العلاقات المنتظمة بين كل التصرفات والسلوكات (Aron, 1967, p. 48)، هذه المرحلة الأخيرة مهمة بالنسبة لـ "فيبر" لأن على عالم الاجتماع تثبيت المعنى الحقيقي الذي تحمله هذه التصرفات لأن كثير من الأحيان فالفاعلين لا يستطيعون

تفسير أو إعطاء معنى للتصرفات التي يقومون بها، ومن الصعب على المهتم بالسلوكيات تفسيرها بصفة تلقائية.

4.4. في محتوى التحليل السوسيولوجي: الاندماج أو الصراع أو التفاعل:

إلى جانب هذه التصدعات التي تطبع المقاربات السوسيولوجية في ميدان علم الاجتماع، هناك مستوى آخر في التحليل السوسيولوجي الذي يعرف كذلك تباين ملفت للنظر بين العديد من التيارات السوسيولوجية، فهذا التحليل السوسيولوجي للواقع الاجتماعي يحمل في محتوى اهتماماته ثلاثة مواضيع أساسية، تراود علم الاجتماع منذ ظهوره، فهناك من المقاربات التي تنطلق إلى المجتمع من زاوية الاندماج الاجتماعي، وأخرى تركز على الصراع بينما المقاربة الأخيرة، فهي تعطي الأولوية للتفاعل الاجتماعي أو ما يسمى بالفرنسية (l'interactionnisme) .

ففي المقاربات الأولى في علم الاجتماع نجد أن التحاليل السوسيولوجية ركزت على فكرة الاندماج الاجتماعي، فلقد اهتمت في معرض تحاليلها على سبل تحقيق التكامل في المجتمع، وركزت على دور المؤسسات الاجتماعية وعلى أهمية القيم التي تعمل على تحقيق التوازن الاجتماعي، وبحثت في نفس الوقت في الأسباب والعوامل التي تشكل عائقا أمام الاندماج الاجتماعي للأفراد، ومن بين أبرز علماء الاجتماع الذين يندرجون في إطار هذه التحاليل هناك خاصة "اميل دوركايم" وفي أمريكا نجد خاصة "بارسونز"، "ميرتون"، الخ. ولعل السبب الذي يفسر هذا التركيز على الاندماج الاجتماعي في التحاليل السوسيولوجية الأولى هو دون شك الوضعية التاريخية التي كانت تعيشها المجتمعات الغربية في مطلع القرن العشرين نتيجة التحولات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية.

أما التيار الثاني الذي تندرج فيه التحاليل السوسيولوجية، فهو ذلك التيار الذي يرى في المجتمع مجالا للصراع بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، فهناك العديد من المقاربات السوسيولوجية التي اهتمت بفكرة الصراع والتناقضات السائدة في المجتمع، بحيث حاولت كشف علاقات القوة والسيطرة الخفية التي تنتشر في المؤسسات الاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، الخ، القائمة في المجتمع، وعلى سبيل المثال نستطيع أن نشير إلى "بيير بورديو" في فرنسا، "شارل ورايت ميلز" (Charles Wright Mills) في أمريكا، هذه التحاليل نجدها قد سادت طيلة الفترة التي أعقبت الحرب العلمية الثانية والتي صادفت مرحلة إرساء المؤسسات الرأسمالية.

في الأخير هناك اتجاه آخر يميز التحاليل السوسيولوجية وقد تبناه كثير من علماء الاجتماع في مقارباتهم للواقع الاجتماعي، وهذا التيار هو التفاعلية الذي يولي اهتماما كبيرا إلى وصف وفهم التفاعلات الاجتماعية، فكل المسائل التي تنطلق إليها التحاليل السابقة انطلاقا من فكرة الاندماج أو الصراع الاجتماعيين، فهذا التيار الأخير يحللها على أساس التفاعل القائم بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين، سواء

تعلق الأمر بالمؤسسات، أو العلاقات الشخصية، أو أنماط السيطرة، أو أشكال الاندماج الاجتماعي، الخ، كلها مسائل يتم التطرق إليها من باب التفاعل الاجتماعي، ومن بين أبرز الممثلين لهذا التيار نستطيع الإشارة إلى علماء الاجتماع الألمان، "ماكس فيبر"، "جورج سيمل"، وكذلك الأمريكيين خاصة علماء الاجتماع مدرسة شيكاغو، من أمثال "إرفين قوفمان" (Erving Goffman)، الخ، (Giacobbi & Roux, 1990, pp. 220-221).

5.4 المناهج الكمية أم المناهج الكيفية:

بالإضافة إلى كل هذه المجالات التي تجسد التباين الذي تعرفه المقاربات السوسيولوجية، يمكن في الأخير الإشارة إلى مستوى آخر شهد أيضا اختلافا بين علماء الاجتماع في مجال البحوث السوسيولوجية، والذي يتمثل في الجانب المنهجي، فهل يتعلق الأمر في هذا المجال بالمنهج في علم الاجتماع أم بالمناهج في علم الاجتماع؟ وما هي المناهج التي هي أكثر ملائمة للبحوث في علم الاجتماع: المناهج الكيفية أو المناهج الكمية؟

فعلى عكس العديد من العلوم الإنسانية، ففي ميدان علم الاجتماع هناك تنوع في المناهج التي يحتذى بها علماء الاجتماع، ويتحدث "ريمون بودون" عن مناهج علم الاجتماع وليس على منهج واحد فقط (Boudon, 1973, p. 124)، بالتالي فإن مسألة المنهجية تطرح بوضوح في ميدان علم الاجتماع وهذا راجع، يقول "ريمون بودون" إلى عدة أسباب، ومن بينها يشير إلى الأصول التاريخية المختلفة لعلم الاجتماع وإلى تنوع المواضيع التي يعالجها علماء الاجتماع التي تستدعي تبني مناهج متنوعة قصد تكييفها مع هذه المواضيع (Boudon, 1973, pp. 5, 17).

فهناك من علماء الاجتماع من يستندون خلال القيام بمقارباتهم السوسيولوجية على المناهج الكيفية وآخرون على المناهج الكمية، ومن بين الأمثلة على هذه المناهج الكيفية كثيرا ما يلجأ العلماء الاجتماع إلى الملاحظة والمقابلة، بينما المناهج الكمية تشكل كل من الاستبيان وسبر الآراء (le sondage) التقنيتين الأكثر استعمالا، وللاشارة فلقد أثارت مسألة استعمال التقنيات الكمية والتحليل الإحصائية جدلا بين علماء الاجتماع خاصة في إطار النقاشات التي رأيناها حول إشكالية الموضوعية والذاتية في علم الاجتماع، فعلم الاجتماع كباقي العلوم الأخرى في مختلف الميادين سعى كذلك منذ المراحل الأولى من بلورته إلى ضرورة الاعتماد على الرياضيات، و"اميل دوركايم" أشار إلى أهمية التحليل الإحصائية في كتابه "قواعد المنهج" ولقد استعان بها في كتابه "الانتحار"، لأن إدراج الرياضيات في علم الاجتماع يساعد على تحقيق علميته، فالاستعانة بها يدعم التحليل السوسيولوجي، بتوضيح العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر وبإبراز البنيات، أكثر مما تستطيع أن تبينه التخمينات والتأملات وحدها (Javeau, 1976, p. 80).

وفي الولايات المتحدة الأمريكية فإنه من جهة أخرى، احتدم النقاش بين مثلاً علماء الاجتماع من مدرسة شيكاغو وعلماء اجتماع من أقطاب جامعية أخرى، لأن علماء الاجتماع جامعة شيكاغو يستندون على المناهج التي تركز على التحقيقات الميدانية وعلى الدراسات في أوساط الجماعات الصغيرة بناءً على الملاحظة بالمشاركة لفهم الحياة اليومية والتفاعلات بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين، بينما فئة أخرى من علماء الاجتماع يولون الاهتمام أكثر للمناهج الكمية معتمدين على الإحصائيات ويركزون على تقنية الاستبيان لجمع المعلومات التي سوف يقومون بتصنيفها إحصائياً قصد تفسيرها (Giacobbi & Roux, 1990)، وهذا التيار تم انتقاده خاصة من طرف عالم الاجتماع الأمريكي "بيترمسوروكين" في كتاب أصدره لمناقشة هذا الموضوع (Sorokin, 1956).

5. خاتمة:

في الأخير بودنا إضافة نقطة مهمة هنا لاختتام بها هذا المقال، هي أن هناك من علماء الاجتماع من حاول تجاوز هذا التباين القائم في علم الاجتماع والذي تعكسه المقاربات المختلفة التي يتبناها الباحثين في هذا الميدان وفي هذا الإطار، نجد دراسات العالم الاجتماعي الفرنسي "بيير بورديو" الذي تشكل أعماله محاولة التوفيق بين وجهة نظر علم الاجتماع الذي تنبأها "اميل دوركايم" ووجهة نظر علم الاجتماع الذي تنبأها "ماكس فيبر".

فعلم الاجتماع عند "بيير بورديو" هي محاولة لتدارك التصدع النظري والمنهجي القائم بين المدرستين، وذلك بالتوفيق بين الموضوعية والذاتية، وبين التفسير (الظواهر الاجتماعية، كما ينصح "اميل دوركايم") ومع الفهم (تصرفات الأفراد، كما يرى "ماكس فيبر")، وبين الاهتمام بالمظهر الخارجي والجانب الباطني، وذلك اعتماد على مجموعة من المفاهيم التي تركز عليها نظريته السوسيولوجية البنوية التكوينية (le structuralismegénétique) وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الهابتوس (l'habitus).

ففي معرض دراسته حول الطلبة في فرنسا وكيفية توزيعهم وتوجيههم في إطار التعليم العالي، حاول "بيير بورديو" تفسير وفهم هذه المسألة من جانبها الموضوعي والذاتي في الوقت نفسه، بحيث استند في هذه الدراسة على الإحصائيات، لكي يبين بأن الطلبة المنحدرين من الطبقات الدنيا يتجهون صوب الفروع الأقل اعتباراً في الجامعة وفي الوقت نفسه، أقر بأن هؤلاء الطلبة يعيشون دراساتهم في الجامعة كإنجاز شخصي واستحقاق مهم بالنسبة لهم.

أما فيما يتعلق بالجانب الكمي وبالجانب الكيفي في مجال الدراسات والتحليلات السوسيولوجية، فإن علم الاجتماع، في حقيقة الأمر في حاجة إلى كل من المناهج الكمية والكيفية في دراساته، فعلى المستوى المنهجي يبدو من المستبعد التخلي عن الرياضيات في علم الاجتماع، كما يبدو أنه كذلك من المستحيل على الدراسات الكمية فهم كل المجالات والمشاكل المتعلقة بعلم الاجتماع، فهناك العديد من المجالات

والمشاكل المرتبطة بميدان علم الاجتماع لا يمكن فهمها بالتركيز فقط على الأبعاد الكمية لهذه الظواهر، فالتحليل الكيفية تستطيع أن تدعم التحليل الكمية وكلاهما متكاملان.

6. قائمة المراجع:

- دوركايم، اميل. (1990). *قواعد المنهج في علم الاجتماع (ترجمة بوزيدة ع. ر.)*. الجزائر: موفم للنشر.
- لبصير، عبد المجيد. (2010). *موسوعة علم الاجتماع*. الجزائر: دار الهدى.
- عيادي، سعيد. (2019). *تاريخ علم الاجتماع واتجاهاته في الجزائر*. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
- سلاطنية، بلقاسم، والجيلاني، حسان. (2019). *محاضرات في المنهج والبحث العلمي*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- قاسمي، ناصر. (2017). *التحليل السوسيولوجي*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- دوران، جان بيير وويل، روبرت. (2017). *علم الاجتماع المعاصر (ترجمة الدكتور طواهري ميلود، ابن النديم)*. الجزائر: مؤسسة ابن النديم للنشر والتوزيع.
- بوخريسة بويكر. (2017). *سوسيولوجية بيير بورديو: تحليل في النظرية والمفاهيم والمناهج*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

Aron, R. (1967). *Les étapes de la pensée sociologique*. Paris: Gallimard.

Bachelard, G. (1988). *Le nouvel esprit scientifique*. Alger: ENAG.

Berthelot, J. M. (1991). *La construction de la sociologie*. Paris: PUF.

Boudon, R. (1973). *Les méthodes en sociologie*. Paris : PUF.

Bourdieu, P., Chamboredon, J. C., & Passeron, J. C. (1980). *Le métier de sociologue*. Paris: Mouton.

Durkheim, E. (1981). *Le suicide*. Paris: PUF.

Giacobbi, M., & Roux, J. P. (1990). *Initiation à la sociologie*. Paris: Hatier.

Grawitz, G. (1996). *Méthodes des sciences sociales*. Paris: Dalloz.

Javeau, C. (1976). *Comprendre la sociologie*. Paris: Marabout.

Lallement, M. (1993). *Histoire des idées sociologiques*. Paris: Nathan.

Sorokin, P. (1956). *Tendances et déboires de la sociologie américaine*. Paris: Aubier .

Weber, M. (1995). *Economie et société*. Paris: Pocket.